المصدر: روزاليوسف
التاريخ : ١٩٩٢/٣/٢٣

أيام السادات الأخيرة

عادل حمودة

السادات والإخوان والسفارة الأمريكية !

فى يناير ١٩٧٩ . نشرت صحيفة « الأهرام » خبراً اقام الدنيا ولم يقعدها .. وفرض على اطراف عديدة الكذب . والتنصل والإنكار .. منها رئيس الجمهورية (انور السادات) ورئيس الحكومة (ممدوح سالم) .. والسفارة الأمريكية فى القاهرة .

كان مصدر الخبر ـ الذى نشرته « الأهرام » ـ صحيفة « واشنطن بوست » الأمريكية . وثيقة الصلة بوكالة المخابرات المركزية (الأمريكية) وهى الصحيفة التى كانت مخلب « قط » الوكالة عند نهش سمعة الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون . والإجهاز عليه من خلال فضيحة « ووترجيت » التى اخرجته من « البيت الأبيض » . والتى رفعت بوب وودورد ـ مفجر الفضيحة ـ من محرر حوادث صغير إلى مساعد رئيس تحرير الصحيفة

اما ملخص الخبر فكان : إن المخابرات الأمريكية تلقت تكليفاً من د . بريجنسكى مستشار الرئيس الأمريكى (جيمى كارتر) لشئون الأمن القومى ، بتحضير دراسة شاملة عن الحركات الإسلامية ، الأصولية ، والمتشددة فى جميع انحاء العالم العربى .. على ان تعتمد الدراسة على مصادر بشرية تنتمى إلى هذه الحركات .. وذلك حتى تعرف الإدارة الأمريكية افضل الاساليب للتعامل معها .. وحتى لا تقع مفاجاة الثورة الإسلامية فى إيران .

لقد حاول الأمريكيون الاستفادة مما جرى فى إيران .. اما السادات فلم يحاول ذلك ، بالرغم من ظهور مؤشرات واضحة .. مثل حادث الكلية الفنية العسكرية فى ابريل ١٩٧٤ .. ومثل حوادث استعمال « المطاوى » فى الجامعات ضد خصوم الجماعات المتشددة .. وعندما نجح الخمينى ، لم يشعر السادات بان دوى الثورة فى إيران يهز وجوده فى مصر .. وان سقوط الشاه يعنى ان نظامه فقد حائطاً صلباً كان يحمى ظهره فى طهران ..

إن كراهية السادات لقراءة التقارير والدراسات بدعوى انها هى السبب فى الإجهاز على سلفه الرئيس جمال عبد الناصر ، جعلته يواجه خصومه المتشددين مثل جراح يجرى جراحة دقيقة فى غرفة مظلمة .. اما الجسد الممدد امامه فكان نظام حكمه .

إن عقدة « إيران » ـ التى اصابت وكالة المخابرات المركزية ـ القت بظلالها على السادات من جانب واحد .. الجانب النفسى .. فجعلته فى شدة التوتر ، والقلق .. وهى حالة اصابته بالعمى السياسى عند التعامل مع الإدارة الأمريكية . وبدلا من ان يتعلم مما جرى للشاه ـ الذى عامله الأمريكيون معاملة سيئة

لا تخلو من الإهانة ـ اندفع فى الطريق نفسه ليلقى ذات المصير .

ومن جانبها ، لم تتردد القيادة الجديدة فى إيران ، فى ان تضع السادات فى خندق الاعداء ، وخرجت المظاهرات فى طهران تطالب بسقوطه .. وتصفه بيهوذا .. الذى باع دم السيد المسيح مقابل حفنة دولارات .. وتستنكر معاهدة الصلح مع إسرائيل .. وكان ذلك فى الاسبوع الاخير من مارس ١٩٧٩ .. اى بعد حوالى شهرين من الخبر ـ القنبلة الذى نشرته « الاهرام » .

وحسب ما جاء فى إحدى وثائق السفارة الامريكية فى طهران ، فإن مجموعة من الطلبة العرب ، يعيشون فى إيران ، احتلوا السفارة المصرية هناك ، تعبيراً عن غضبهم من توقيع معاهدة « كامب ديفيد » ، وقال هؤلاء الطلبة :

إنهم لم يهاجموا السفارة ، بل سُمح لهم بدخولها ، والسيطرة عليها من قبل شخصية رسمية تنتمى إلى السفارة .. وهذه الشخصية افادتهم انها تؤيد قضيتهم » .

وتحمل هذه الوثيقة رقم ٣٢٥٩ وهى صادرة من السفارة الامريكية فى طهران إلى وزارة الخارجية الامريكية فى واشنطن ، وعنوانها « ردود الفعل الإيرانية تجاه المعاهدة المصرية ـ الإسرائيلية » .. وهى من صفحة واحدة ، و فقرات .

وتضيف هذه الوثيقة : ان مظاهرة احتجاج ضد السادات كانت مؤلفة من ٤٠ الف شخص ، خرجت فى مدينة « راهسنجان » .. وان مظاهرة اخرى خرجت فى مدينة « تبريز » كان من « الصعب تحديد عدد المتظاهرين فيها » .. فقد كانوا مئات الألوف من الرافضين .

ولو اقتصر الامر على ذلك لما انزعج السادات .. ولكن « الورطة » التى وجد نفسه فيها هى أن نجاح ثورة الخمينى فى إيران ضاعف من حجم الامل فى صدر الجماعات المتشددة فى مصر ، والتى أصبحت « خصماً » له بعد أن كانت ابنته المدللة ، وخنجره الخفى الذى طعن به القوى اليسارية والليبرالية فى البلاد .. إن الخنجر جاهز للقتل الآن جاهز لاغتياله هو .

فى ذلك الوقت كانت هذه الجماعات ـ ومعها جماعة الإخوان المسلمين ـ قد تحولت بالكامل عنه ، وسعت للتخلص منه .. وكانت أسباب هذه « العداوة » متنوعة .. منها استضافة الشاه .. الصلح مع اليهود .. فصل الدين عن السياسة .. المماطلة فى تطبيق الشريعة .. الترف الذى يعيش فيه .. « فرنجة » زوجته على حد تعبير صحف الحائط التى يحررها المتشددون .

ذلك الوقت ايضاً .. كانت هذه الجماعات تبحث عن « خمينى » آخر فى مصر .. ولكن السادات لا يريد ان يلقى نفس مصير الشاه .. ولا المخابرات الأمريكية ، التى اندفعت ـ من باب التحرر من عقدة الفشل الإيرانية ـ إلى دعمه ، ومساندته ، والقتال إلى جانبه بكل ما تملك من أسلحة ، بما فى ذلك سلاح « اختراق » هذه الجماعات ، لقياس نبضها ، وحجم عضلاتها ، ومعرفة قوة اندفاع الدماء الحارة فى عروقها .. ومحاولة كشف مخططها .. أو استغلاله .

وبدأت فى مصر معركة خفية من نوع آخر مختلف تماماً ، لم يتح لاحد معرفة تفاصيلها ، وكان الخبر الذى نشرته « الأهرام » الطلقة الأولى فى هذه المعركة .

إن « الأهرام » لم تبرز الخبر ، ولم تفرط فى نشر تفاصيله ، وبالرغم من ذلك فإن الجماعات ولية تلقفته وعلقت عليه فى منشوراتها السرية ، واتهمت الحكومة المصرية بالتواطؤ مع المخابرات الامريكية للتخلص منها ، ومن كل « مايمت للإسلام النقى ، الحقيقى بصلة » على حد تعبير هذه الجماعات .

واعتبر السادات نشر هذا الخبر ، على هذا النحو هو مؤامرة امريكية مدبرة ضده ، فقد جاء الخبر ليصب الزيت على النار المشتعلة .. جاء ليزيد من الالتهاب .. فى وقت كانت العلاقة بين السادات والجماعات قد وصلت إلى طريق مسدود .. إلى نقطة اللا عودة .. وكان العنف المتبادل بينهما هو اللغة الوحيدة للتفاهم .. ومن ثم .. كان لابد من إطفاء الحريق ، او على الاقل تهدئة السنة اللهب .. وهكذا .. سارع الجميع بتكذيب الخبر .. الحكومة ، والسفارة ، والرئاسة .. والصحيفة طبعاً .. وكما يحدث عادة فى مثل هذه الأزمات .. حملت الصحافة المصرية الوزر ، وتلقفت ـ صامتة ـ تهمة عدم تحرى الدقة ، وإثارة البلبلة ، وتحريض الخواطر .

والحقيقة .. ان الخبر صحيح .. ولا حرف واحد فيه كاذب .. إحدى الوثائق الامريكية ـ التى استولى عليها الطلبة فى طهران ـ تؤكد ذلك .. والوثيقة سرية .. مكونة من ٥ صفحات .. وصادرة من السفارة الامريكية فى القاهرة .. إلى وزارة الخارجية فى واشنطن .. بتاريخ ٢٣ يناير ١٩٧٩ ، ورقمها « الكودى » ١٤٢٩ ، وعنوانها « تورط مصر فى التقارير التى طلبتها المخابرات المركزية لدراسة الحركات الإسلامية » .

وفى الوثيقة .. وبالنص : « التقطت

« الاهرام » رواية « واشنطن بوست » بأن المخابرات الأمريكية « كُلفت بتحضير دراسة شاملة عن الحركات الإسلامية فى العالم العربى » .. وفيها .. ان الاهرام كشفت طلب د . بريجنسكى للمخابرات الامريكية بتحضير هذه الدراسة .. وفيها .. ان الذى نشر الخبر اصلاً فى « واشنطن بوست » محررها لشئون « الكونجرس » .. هوكلاند .. وقد حصل عليه من لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ الامريكى التى عرفت به من لجنة « المخابرات والامن القومى » بالمجلس .

وبفضح الامر على هذا النحو لم يعد من السهل القيام بهذه الدراسة .. فهذا النوع من الدراسات يحتاج لسرية تامة « تجرى فيها اتصالات « ما » ببعض افراد « وقيادات الجماعات والتنظيمات الاصولية .. وهى اتصالات غير مكشوفة لهذه الجماعات .. اى انها اتصالات لا تقوم بها اجهزة المخابرات بصفتها المباشرة « وإنما تتستر فيها وراء اغطية لا تثير الشك « مثل الصحافة « والجامعة « والبحث « والمراكز الاستراتيجية التى اصبحت « موضة « الآن .

ولا جدال ان كشف الخبر « جعل الجانب الآخر ياخذ حذره « ويتحفز لمحاولات التضليل والتستر والخداع .. ومن ثم تم التراجع عن القيام بهذه الدراسة « قبل ان يبدأوا فيها .. ماتت قبل ان تُولد .

وحسب الوثيقة نفسها « فإن المخابرات المركزية ظلت مترددة عدة سنوات « فى القيام بهذه الدراسة .. لان موضوعها « حساس جداً بالنسبة لمصر « .. بل وخطر ايضاً .. وخطورة الموضوع فى ان كشف الدراسة يضع علاقة السادات بالولايات المتحدة فى موضع المجازفة ..

وهو ما جعل الوثيقة تقول بالنص : إنه « لا يوجد فى مصر قطاع اكثر تاثراً وحساسية من اليمين المسلم المتشدد » .. او « دوائر المسلمين الاورثوذكس » على حد تعبير الوثيقة ايضاً .. والمقصود بـالاورثوذكس هنـا .. الاصوليين .. او غير المجددين .

والاكثر من التراجع عن الدراسة ، ان نشر الخبر عطل «الجهود المبذولة من قبل السفارة الامريكية فى القاهرة لإقـامة حـوار بناء (والوصف للسفارة الامريكية نفسها) مع عناصر اليمين الدينى فى مصر» .. على حد ما جاء فى الوثيقة.

ومن السهل ملاحظة .. ان السفارة الامريكية لم تقل عناصر اليمين الدينى «المتشدد» هذه المرة .. والسبب انها لم تقصد الجماعات الأصولية مثل «الجهاد» او «التكفير والهجرة» او «حزب التحرير الإسلامى» وإنمـا قصدت «الإخوان المسلمين» .. وقد اضافت الوثيقة : ان ما تبقى من حركة الإخوان المسلمين ـ التى برزت فى مصر فى الاربعينيات ـ مازال له تاثير سياسى ، وهذا التاثير موجود ، بالرغم من تعرض الحركة لعمليات اجهاض ، .. وبالرغم ، مماعانته من مشاكل على مستوى اللقيادة ، .

وقد بدا الحوار «البناء» منذ سنة ١٩٧٧ مع بعض قيادات «الإخوان» ، بعد ان رفضت هذه القيادات ذلك كثيراً من قبل .. ومن الواضح ان السادات كان على علم بهذا الحوار .. ففى الوثائق الامريكية .. ان السادات نصح الطرف الامريكى بتوخى الحظر لان «اليمين المسلم اكثر تيقظا اليوم من اى وقت مضى فيما يتعلق بدراسة من هذا النوع» .. واقترح السادات ان تستند هذه الدراسة إلى «مصادر مصرية

حكومية، ولو كمصادر ثانوية !

وما يؤكد ان السادات كان على علم بهذا «الحوار» هو انه قال فى ١٥ ابريل ١٩٧٩ :

- بيقال لولادنا النهاردة انه امريكا باعته قال لحكومة ممدوح سالم تقول لها اوعى الحركات الدينية.. وخلصى على الحركات الدينية .. ماهم عايزين التلمسانى .

(انظر حسنين كروم - الإخوان المسلمين والصلح مع إسرائيل - ص ٤٢) .

كان السادات يتحدث اثناء اجتماعه مع رؤساء واساتذة جامعتى اسيوط والمنيا ، ويرد على ما كتبه عمر التلمسانى فى مجلة «الدعوة» عن خطة امريكية للقضاء على الجماعات الدينية .

ولم يفهم احد ممن سمعوا السادات ما الذى كان يقصده بقول «ما هم - تعود على امريكا - عايزين التلمسانى» ؟ اما الآن - وبعد هذه الوثائق - فيمكن ان نفهم انه كان يعرف بالاتصالات الامريكية مع عمر التلمسانى .. ويمكن ان نفهم كذلك انه كان يخشى ان يختار «الامريكان» عمر التلمسانى ليكون بديلاً للسادات .. «ماهم عايزين التلمسانى» !

كان الاتصال الاول بين الطرفين . هو ما قام به «مسئول القسم السياسى» فى السفارة (غالبا ما يكون تابعا لوكالة المخابرات المركزية) .. اتصل بعمر التلمسانى الذى - حسب نص الوثيقة - «اعرب هو ورفاقه عن رضاهم بهذه الاتصالات من خلال مناقشاتهم الصريحة مع مسئولى السفارة ، وابدوا عدم خوفهم منها ، بالرغم من انها جزء من تغطية المخابرات المركزية لتحضير برنامجها المتعلق بدراسة الحركات الإسلامية» - بند ١٤ ، ص ٢ من الوثيقة .

وعلى لسان السفارة الامريكية ، يف الوثيقة : ان هذه الاتصالات ،يجب ان تعزز بعناية وبشكل سرى، .. والنصيحة موجهة إلى قيادتها فى واشنطن .. والسبب : ان هذه الاتصالات تجعلهم يقتربون من ،الهدف، .. وهو ،معرفة ما يجرى وراء الكواليس، ،م ،صورة واضحة لاوضاع التيار الدينى الداخلية، .

وتضع الوثيقة بعض ملامح هذه الصورة .. بدون ماكياج ولا رتوش .. على النحو التالى :

١ ـ إن الاصوليين المسلمين ينظرون بشك للولايات المتحدة .

٢ ـ إن الإخوان المسلمين يتعاطفون كثيراً مع الفلسطينيين ، بسبب قضية القدس .. ويشعرون بمرارة من استمرار الاحتلال الإسرائيلى للمدينة المقدسة .

٣ ـ إن اليمين المسلم يوجه الانتقادات للسادات بسبب توقيعه لاتفاقية ،كامب ديفيد، مع الإسرائيليين ، وفشله فى الحصول على تعهد باستعادة القدس الشرقية .. حيث يقع المسجد الاقصى وقبة الصخرة .

٤ ـ إن فشل المسلمين العرب فى القيام باى عمل ضد الاحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية ، واعماله التعسفية سيؤدى إلى توجيه اللوم للولايات المتحدة الامريكية ، التى يعتبرها المسلمون الاصوليون مسئولة عن هذا الاحتلال!

٥ ـ بعد تدهور الوضع فى إيران ، زاد عداء المسلمين المصريين للولايات المتحدة الامريكية .

٦ ـ إن الديناميكية السياسية للشيعة والسنة مختلفة بالطبيعة .. ولكنها الان متحدة بالذ للشك فى اهداف الولايات المتحدة .

٧ ـ إن العداء للولايات المتحدة تجاوز تعليقات ومقالات مجلتي «الدعوة» و«الاعتصام» إلى خطبة «الجمعة» في بعض المساجد الأهلية .

٨ ـ إن الوضع اصبح اكثر سوءا عندما تحرك المعسكر السوفيتي ، واليسار المصري (خالد محيي الدين مثلاً) واعاد اتصالاته باليمين المسلم بهدف استثمار الوضع .

٩ ـ إن تقارير المخابرات المركزية الأمريكية حول الحركات الإسلامية كافية للتصعيد .

١٠ ـ ينبغي وضع المسلمين المتشددين المصريين في دائرة الرؤية والمتابعة والتحليل ، لأنهم يشكلون احد مفاتيح الاستقرار السياسي في المستقبل .

١١ ـ لابد أن تلين واشنطن موقفها تجاه الاصوليين في مصر .

١٢ من البالغ فيه الحديث عن بدائية هذه الجماعات .

١٣ ـ لابد ان نعزز جهودنا لتطوير الحوار مع قيادة الإخوان المسلمين .. وهذا افضل من العمل باساليب المخابرات .. مع ان دراسة المخابرات يمكن أن تكون ضرورية .

١٤ ـ لابد ان نحذر من ان الانتقادات الموجهة ضد اى دولة إسلامية اخرى ـ من قبل اعضاء الكونجرس البارزين ـ لا تنطبق على اليمين المسلم في مصر .

(الفقرات ٥ ، ٦ ، ٨ ، ٩ .. ص ٣ ، ٤ ، ٥ من الوثيقة) .

وبين السطور نكشف هذه الوثيقة طبيعة الصراع المزمن بين الخارجية الامريكية والمخابرات المركزية او بين السفارة ومحطة الوكالة على المستوى الاصغر .. او بين الدبلوماسية والعمل الخفي .. وذلك من ناحية اساليب العمل .

وهذا الصراع ليس جديدا .. ولن يتوقف مهما كانت النتائج .. فرجال المخابرات المركزية يؤمنون بان لا مخابرات قوية بدون اعمال خفية .. ويقولون إن ترك الأعمال الخفية يحولهم إلى وكالة صغيرة فى زاوية بعيدة يعلوها الغبار .. اما الدبلوماسيون فى الخارجية الامريكية فيصفون رجال المخابرات بالرجال «الذين يعيشون فى وسط الاحراش» ..

ويرون فى تصرفاتهم «غطرسة» و«جليطة» تنتهى بالفشل دائما .. وهذا الفشل الدائم سببه انهم ينفذون مجموعة محددة ، محدودة من الخطط الجاهزة دون أن يدرسوا الواقع .. ودون ان يضعوه فى حساباتهم .. ثم .. ان تقديراتهم دائما ميتة .. اى تقديرات لا تهتم بالمؤثرات النفسية ، والروحية ، والدينية التى تحرك الشعوب .. ومن ثم لا تختلف نظرتهم كثيراً إلى رئيس منفلت العيار مثل الرئيس الاوغندى الاسبق عيدى امين ، عن نظرتهم إلى زعيم دينى ، مثل اية الله الخمينى .

وفى موضوع الاصولية الإسلامية فى مصر كان رجال المخابرات المركزية يعتمدون اساليب الاختراق .. اما الدبلوماسيون الأمريكيون فكانوا يرون ان عداء الاصوليين للولايات المتحدة هو رد فعل لعدائها لهم ، ولبلادهم .. وان تحويل العداء إلى ود مسالة يمكن ان تبدأ الولايات المتحدة خطوتها الاولى .. والخطوة الاولى هى ان تفهم الفروق المذهبية والإقليمية والسياسية بين الجماعات والتيارات الإسلامية المختلفة .. لا ان تضع كل الزيوت فى زجاجة واحدة .

اما الخطوة الثانية فهى إظهار حسن النية ، والتعاطف لفهم الإسلام ، والقيام باعمال يكون من نتائجها التغلب على عدم ثقة المسلمين فيما يتعلق باهداف الولايات المتحدة .. ومثال لهذه الخطوة الزيارة التى قام بها جيمى كارتر لمقام شيخ الازهر الراحل الشيخ عبد الحليم محمود عندما كان فى مصر .. ان هذه الزيارة جعلت الرئيس الامريكى الاسبق يبدى ملاحظات تتسم بالإحساس لا بالبطش والغباء كما هو معتاد .

هكذا .. كان ينظر الدبلوماسيون الامريكيون فى القاهرة لهذا الموضوع الحساس .. ولكن .. ذلك لم يكن يفيد كثيراً .. فالقوة فى النهاية فى يد المخابرات المركزية .. والسيطرة ايضاً .. والتصرف بخطا دون حساب او عقاب كذلك .. لذلك لم يكن مثيراً للدهشة ان يسقط السادات كما سقط الشاه .. وان يلمع رصاص التطرف فى عز الظهر ، يوم العرض العسكرى .. يوم عرس السادات .. الذى انقلبت فيه الزغاريد نحيبا .. والفرح حزناً .. والكبرياء انكسارا ! ■

عادل حمودة